السؤال الإبستمولوجي اللساني عند عبد السلام المسدي

The question of linguistic epistemology at Abdul Salam Al-Masdi

1 حسين مهني*
جامعة غرداية (الجزائر)، mehenni.housseyne@univ-ghardaia.dz
2 محمد مدور
جامعة غرداية (الجزائر)، Meddour.medj@gmail.com

تاريخ الارسال 2024/03/17 تاريخ القبول 2024/05/06 تاريخ النشر 2024/06/01

ملخص:

من الدارج عند عامة الباحثين وحتى عند بعض خاصة العارفين وكما هو بديهي لديهم أن أي محاولة لوضع أي نظرية من النظريات المعرفية للعلوم لا بد و أن يكون منطلق هذه النظرية هو تنطلق من الإنسان هذا الكائن اللغوي، فاللغة هي الشي الذي تفرد به ، والكتابة عن أي علم من العلوم وجب فيه الرجوع إلى الأصول الفلسفية البحتة، والتي على أساسها وضعت القوائم الممتلئة لهذا العلم، فلا يمكن فهم العلم إلا من خلال أصوله الفلسفية، والمعرفية، فنروم من خلال هذه الورقة البحثية بالرجوع إلى الأصول التي أقيمت عليها نظرية المعرفة اللسانية أو كما يصطلح عليها بالإبستمولوجيا اللسانية.

فيكون الهم المعرفي لدينا مبسوطا على شاكلة سؤال نسوغه كالتالي:

كيف جاءت اللسانيات إلى هذا الأفق الإبستيمي حتى كادت تنفر بغزارة الإخصاب المعرفي بين سائر العلوم؟

وكيف تعانقت اللسانيات والفلسفة بعد أن التقتا على منصة إبستيمية المعرفة؟

الكلمات المتاحية: الإبستمولوجيا، اللسانيات، عبد السلام المسدي، المرجعيات الفلسفية، نظرية المعرفة.

Abstract: **Any theory about any of the sciences is due to start from formulating a theory about man , and language is the thing that is unique to it This is usual and obvious to both general researchers and some especially the knowledgeable ,and writing about any of the sciences must refer to the fundamentals pure philosophical on the basis of the full lists of this science were devoloped. The epstimological origins pivotal to make science more understood, so we intend through this research paper to refer to the origins on which the theory of linguistic knowledge is based, or as it is termed by linguistic epistemology, so that our cognitive concern is simplified in a question we explain as follows: How did linguistics come to this epistemic horizon until it almost alienated the abundance of cognitive fertilization among the rest of the sciences? And how did linguistics and philosophy embrace after they met on the epistemic platform of knowledge?**

Keywords: theory of knowledge; Epistemology; Linguistics; Abdul Salam Al-Masdi; Philosophical references;.

* المؤلف المرسل: حسين مهني

1. مقدمة:

إذا أردنا الكلام عن الدور الذي تلعبه علوم اللغة حاليا فلن نبالغ في الحكم ومن باب الإنصاف متمسكين بالمنهج النقدي البحت للعلوم أمكننا القول بأن المعرفة العلمية الدقيقة للكلام البشري تعتبر بوابة الولوج غلى كل أنواع المعارف الإنسانية. فالمكانة التي يحتلها علم اللسان اليوم مكانة جليلة وذلك من خلال الدور الذي يلعبه في العلوم الكونية جمعاء،

هذا ما جعل اللسانيات تتبوأ المكانة العليا والاهتمام البارز، و الحظوة التي منيت بها اللسانيات اليوم ساهمت في ازدهارها وعلو شأنها ومراتبها في حقول العلوم الكونية الإنسانية منها وغبر الإنسانية تنظيرا وتطبيقا فلا يعتبر من نزوات فكر البشرية، أو ترف معرفي، فلا يعتبر بدعة العلوم التنظيرية الحديثة، فالأمر الذي طرأ على مسار البحث اللغوي لا يعتبر من الطفرات التي عرفتها المدارس الفنية، أو البعض من التيارات الأدبية، أو الاتجاهات الفلسفية التي اتسمت بالمغالاة، وإنما هو منهج معرفي علمي بالغ الرصانة، بني على قواعد وأسس ومبادئ محكمة.[1]

يشير العالم الإناسي كلود ليفي شتراوس في مقدمة الدراسة الأولى التي قدمها حيث تمحور كلامه حول مكانة اللسانيات فيرى أن اللسانيات اليوم تتبوأ الصدارة والمنزلة الاستثنائية دون أي مجادلة، بين سائر العلوم الإنسانية والاجتماعية، والتي تعتبر منتمية إليها. فاللسانيات استطاعت توليد منهج إيجابي والذي نجحت في تطبيقه على الظاهرة اللغوية والإنسانية والاجتماعية[2]

فقد أوكل اليوم للسانيات مقود الفاعلية التأسيسية في ما يخص المعرفة العلمية الإنسانية، ولا ينحصر الأمر على تأصيل المناهج والتنظير لطرق إخصابها للمعرفة، بل يتعدى الأمر غلى كونها تنكب على دراسة اللسان البشري، فتجعل من اللغة موضوعا ومادة للدراسة، والصفة القارة الفارقة المميزة للإنسان هي الكلام، فالإنسان على لسان الحكماء في حدهم له على أنه الحيوان الناطق، فاعتبرت هذه الخاصية العلامة الفارقة والتي أعطتها صبغة الإشعاع والجاذبية. [3]

وهكذا أصبحت اللسانيات مركزا من مراكز الاهتمام في التفكير البشري المعاصر، من ناحية صناعة المناهج وطرق ممارستها، وبذلك أضحت مفتاحا لكل حادثة.

اللسانيات وفلسفة المعرفة:

تعرف العلوم اليوم الكثير من التداخل والتقاطع فيما بينها، وخاصة علم اللسانيات، حيث أمكننا اليوم « القول إن الألسنية تتمفصل مع العلوم الإنسانية والاجتماعية في بنية إبستمولوجية خاصة، تسمح بإظهار العلاقات المنطقية النابغة من الواقع، كما تسمح أيضا بإظهار الطابع الكلي لظواهر الاتصال »[4]، وأي محالة لتحصيل أي علم من العلوم دون الأخذ بالعلم منهجا، أي باكتساب المناهج، وليس ثمة تحصيل لها، ما لم يكن مسبوقا بتحصيل للمناهج[5] والمنهج هو «طائفة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة والعلم[6] »،ويمكن اعتبارها مجموعة من العمليات أو الحسابات الذهنية الدقيقة والتي بموجبها تحاول جل العلوم بلوغ كنه الحقائق[7].

«وعلى الرغم من وجوب العناية بتعريف المنهج في نظرية المعرفة، فإن الاقتصار على عمل كهذا-في حقول العلوم الإنسانية- غير كاف، فليس المنهج أدوات ومفاهيم، معزولا بعضها عن بعض، بل هو من خلالها-في المقام الأول- سؤال عن المعنى، وسؤال عن طرائق إنتاجه»[8]. فتترامى أبعاد المنهج الإبستمولوجية، وتعانق مضامين العلوم، للتأسيس الفعلي لأي نظرية معرفية

فيتمازج المنهج –فضل المرونة التي اكتسبها- مع مجالات المعرفة المتنوعة، وخاصة الإنسانية منها، وتكون لنظرية المعرفة الدور الأبرز في استيعابه لمختلف المعارف.[9] و«ما لم نربط أسس المعرفة اللغوية، بمقومات العلوم السائدة الأخرى، فإنه يتعذر علينا الإمساك بنسيجها المعرفي، كما يتعذر إدراك خفاياها الأصولية[10]».

يمكن حصر مجالات بحث الفلسفة الكبرى في ثلاث مباحث كبرى وهي: علم الوجود (الأنطولوجيا)، ونظرية المعرفة (الإبستمولوجيا)، وعلم القيم (الأكسيولوجيا). و تحاول الفلسفة تتبع هذه الموضوعات، لتضبطها في قواعد تصلح أن يكون معيارا في: المعرفة والوجود والقيم. سنحاول بسط القول في هذه المباحث الفلسفية:[11]

1. علم الوجود (الأنطولوجيا):

هو مبحث من مباحث الفلسفة الميتافيزيقية يعنى بالبحث في الوجود المطلق، أي البحث في الوجود على حقيقته التي هو عليها، وعلى رأي أرسطو: محاولة البحث في الوجود بما هو موجود، فلو كانت الطبيعيات تتدارس الوجود بصفته الأجسام المتغيرة، والرياضيات تدرسه من جانب كونه مقدارا وكمّا، فعلم الوجود (الأنطولوجيا) هو البحث في الوجود على الإطلاق، بمحاولة منه لتبيان طبيعته، والبحث عن المبادئ الأولى التي قام عليها، وخصائصه العامة، وعلله القصوى، مثل: أصل الكون والعرضية والجوهرية،، وقضية القدم والحدوث، و مسألة الاستحالة والوجوب والإمكان. ويقوم علم الوجود على تصور مفاده أن العالم موجود منفصل عن جزئياته[12]،

2. علم القيم (الإكسولوجيا):

وهو من المباحث التقليدية للفلسفة، ويختص بالبحث في قيم الحق، والخير والجمال. وهذه الموضوعات يدرسها علم المنطق، وعلم الأخلاق، وعلم الجمال، وهي علوم معيارية مهتمة بما ينبغي أن يكون، خلافا للعلوم الوضعية، المهتمة بما هو كائن[13]. ومن المصطلحات الأخرى الدالة على مبحث القيم: (القسمة)، و(نظرية القيمة)[14]

3. نظرية المعرفة (الإبستمولوجيا):

من المطالب الرئيسية في الفلسفة، وهي دراسة العلوم النقدية، يعتقد أن الفيلسوف الذي صاغه هو: الاسكوتلاندي جيمس فريديريك فيرير حيث ألف كتاب مبادئ الميتافيزيقية، حيث قسم الفلسفة إلى قسمية: أنطولوجية، وإبستمولوجية، وتبحث في سؤال عن كيفية إمكان الحصول على المعرفة، فتعالج نظرية المعرفة أسئلة عن أساس المعرفة ومبررها «ولأن علاقه البشر بالوجود تعد _في أحد أهم جوانبها_ علاقه معرفيه تتبوأ نظرية المعرفة منزلة متميزة، على اعتبار أنها تعبر عن ضرورة المعيار الإبستمولوجيا الذي يحدد سبل التعامل المثلى مع الوجود _بطرفيه المادي والروحي_ قدر ما تعبر عن النهج الذي يتعين انتهاجه كما يتسنى للبشر تحقيق المقاصد التي يعنّ

لهم أمر تحقيقها[15]»، وهي الدراسات النقدية لمبادئ العلوم المختلفة، وفروعها ونتائجها وتحديد أصلها المنطقي، وقيمتها الموضوعية، «بحساب أن العالم الموضوعي والمتخيل، لا يمكن إدراكهما من غير خطة معرفية منظمة، حتى لو لم تكن مقطوعا بصحتها، وكونها منظمة يعطيها شرعية البحث في مطالب العلوم الإنسانية والطبيعية، ويجعلها قابله للنقد والتعديل والتبديل[16]»، ويقوم على نقد المنهج العلمي الذي يتطور والذي يجب أن تتطور منهجية العلم معه، ويعلمنا التاريخ الفكر البشري بأن الفلاسفة في محاولة منهم للتعبير عن النقاش القائم حول حقيقة المعرفة منذ العصور الأولى للفلسفة، ومنهم من اتخذ منهج المغالاة في طرح فنفى وجودها من حيث المبدأ، ضننا منهم أن الإنسان _بطبيعته_ غير قادر عليها[17] فالإبستمولوجيا علم متغير يقوم على الأشكال المنطقية المبادئ والمفاهيم الأساسية، وطرق الاستدلال ومحاولة فهم تطور المعرفة والعلوم.

والمتتبع لحياة المصطلحين: (نظريه المعرفة) و (الإبستمولوجيا) يلاحظ اختلافا واضحا عن الباحثين في توظيفهما واستعمالهما، فهمنهم من يستعمل المصطلحين لمفهوم واحد باعتبار أن لهم نفس الدلالة، وهناك من الدارسين من يفرق بينهم إذ يعتبر الأول خاصا بالعلوم الإنسانية، والثاني خاصا بالعلوم الطبيعية، ويتكلم الدكتور محمد عابد الجابري حول هذه القضية ويبين أن شرعيه عدم التمييز ناتجه عن التداخل والتشابك، فيقول" «إذا كان كثير من الباحثين المعاصرين يرون ضرورة التمييز بينهما استنادا إلى أن الإبستمولوجيا تهتم بالمعرفة العلمية وحدودها، في حين تتناول نظرية المعرفة بشكلها التقليدي المعروف، أنواع المعارف كلها، فإن مثل هذا الفصل لا يخلو من الغلو والاصطناع»[18]

وتعتبر المناهج المذكورة أعلاه بمثابة صورة مختصرة عن المناهج المعرفية الفلسفية، التي كانت عماد المعرفة الإنسانية للفلسفة الحديثة، واعتمدت _على بعضها_ اللسانيات البنيوية في تشيد صروحها العلمية، ما يعني أن الجهد البنيوي السوسيري لم يعاني كما يزعم البعض من قطيعة إبستمولوجية بالمناهج الفلسفية، ولم يكن مقطوعا من النتائج المعرفية لبعض من كبار فلاسفة العالم النسقيين، من مثل عمانويل كانت، ف[19]العلاقة بين الفلسفة والبنيوية تتضح في إيجاد نظرية فلسفية مخفية وراء المقاربة البنيوية. والأمر متعلق بتصور عمانويل كانت (1723-1804) للنسق الخفي اللازماني الشامل ، حيث أن كل المظاهر الخارجية الكينونات وللأشياء ترجع إليه ، وينطبق الأمر كذلك على المظاهر الرمزية والتصورات الفكرية والتي بإمكاننا ردها إلى نسق متعال ومثالي ، و قد تميز هذا النسق بوصفه قبليا تتوفر فيه الأسس القالبية ذات الطبيعة المثالية بحيث تكون قابلة لكي تدمج فيها جميع الظواهر والأنظمة، بغض النظر عن التعددت والتنوعت في الواقع الفعلي المادي[20]، حيث كان لسؤال المعرفة العليمة علاقة بالمرجعيات الفكرية والفلسفية للسانيات السوسيرية، والتي أثرت –هذه الأخيرة_ فيه بشكل مباشر وغير مباشر، ويعتبر سؤال المعرفة أحد أهم الموضوعات للفلسفة النقدية، حيث يرجع كبير الفضل في تموقع اللسانيات الحالي بين مختلف االعلوم الإنسانية والطبيعية، ومن المسلمات اليوم أن اللسانيات الحديثة قد أضحت مركز الاهتمام في الحقول البحثية للعلوم الإنسامية بدون أي منازع، فالعلوم اليوم التجأت في مناهجها البحثية

والنقدية لحصيلتها العلمية، وما تنتجه من التقديرات العلمية الدقيقة، وطرائق الاستخلاص، وهذا راجع إلى أن الظاهرة في العلوم الإنسامية اليوم تسعى جاهدة إلى تبوأ المنزلة الموضوعية بسبب الضغط العلمي على الإنسان المعاصر، وقد كانت اللسانيات العلم السباق في هذا الصراع الفكري الثقافي والمعرفي الشاسع، فأصبحت جسرا تعتليه كل العلوم الغنسانية قصد كسب القدر اللازم من الصرامة الوضوعية.[21]

والتطور العلمي والمعرفي الكبير الذي لامس مناهج البحث العلمي، كان له الفضل الكبير في التطور الذي شهدته العلوم الإنسانية والطبيعية، لتكون على الشاكلة التي هي عليها اليوم، ويعزى هذا كله إلى الحركة العلمية التي تمثلت في حقبه القرن التاسع عشر الميلادي عندما ساد معظم العلوم، والمعارك _في ذلك القرن_ توجهان مهمان جدا، تحددت بهما فلسفة المناهج المعرفية العلمية والإنسانية (ومنها اللسانية) قاطبه، وهما[22]

-الوعي بأثر التاريخ، وفعله في سيرورة الإنسان.

- والبحث عن القوانين المتحكمة في الظواهر كلها، الطبيعية منها، والإنسانية.

و الفيلسوف الذي ربط اسمه بالطابع المنهجي المزدوج والذي كانت فلسفته قائمة في الأساس على الاعتراض على فلسفة الفيلسوف عمانوئيل كانت، وهو الفيلسوف الألماني الشهير جورج فيلهلم فريديريش هيغل (1700-1831)، أحد مؤسسي الفلسفة المثالية الألمانية، حيف كانت فلسفة مواطنه كانت قائمة على المنهج الذهني، أو العقلي المجرد، وكذلك اعتراضا على المنهج الحدسي المنبثق عن التيار الرومانطيقي، المشيد على اللامعقول[23]، وهيغل في طرحه لا يقبل بالمعرفة الحسية، وإنما ينطلق من الطبيعة أي من الخبرة المكتسبة من التجارب الطبيعية المندمجة في العالم[24]. وكما أشرنا سبقا بأن فلسفة هيغل هي رد على فلسفة كانت، فهي في هذا السياق نرى أن فلسفة هيغل المتبني للمنهج التجريبي هي اعتراض شديد على فلسفة كانت المتبنية للمنهج العلقي المجرد، وعلى المنهج الحدسي الذي يبعد التجربة الحسيه[25].

فلقد مثلت آراء هيغل في ذلك الوقت قمة الهرم البحث العلمي، ونلاحظ هذا في التأثير الذي لامس مناهج البحث العلمي للعلوم الطبيعية منها والإنسانية، ولامس هذا التأثير حتى البلدان العربية وغيرها من الشعوب التي اطلعت على الرأي الهيغلي.

كانت رؤية هيغل المنهجية للتاريخ متفردة فلقد حاول المواءمة بين تناقضات التاريخ، والتجريد العقلي[26]، حيث حاول هيغل الملائمة بين الفكر والواقع، الفكر المنسج مع بعضه، والواقع المشوه، ولا يمكن الوصول إلى هكذا محاولات من غير الوصول إلى نواميس الظواهر المتحكمة في العلوم «وهذا ما يسهم في دعم فكره تلاقي اللسانيات بالإبستمولوجيا والفلسفة تحقيقا للثراء المعرفي، بعيدا عن (مبدا المحايثة)[1]* المتبنَّي في اللسانيات المضيقة. ومما يسعفنا كثيرا –على وفق الفلسفة الهيغلية– في الوصول إلى هدف الكشف عن بنيات الثقافة هو[27]» أن المعارف والأشياء

[1]المحايثة: مصطلح يدل على الاهتمام بالشيء (من حيث) هو ذاته وفي ذاته، فالنظرة المحايثة هي النظرة التي تفسر الأشياء في ذاتها ومن حيث هي موضوعات تحكمها قوانين تنبع من داخلها وليس من خارجها

متلاحمان أي أن الشيء في ذاته والمعرفة عند هيغل لا يمثلان عالمين منفصلين، بل إن الفرد لا يتجزأ عن الطبيعة، مثله في ذلك كمثل الطفل الصغير الذي يحيا وجوده المباشر في أحضان أمه. حيث وعلى حسب الرأي الهيغلي أن النتاج اللغوي مهما كان هو نتاج متصل بالحياة الطبيعية للجماعة اللغوية، بل هو سمة أي جماعة لغوية معنية بالبحث اللساني الإبستيمي، بالطبيعة هي المشكل للفرد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بالفرد لا يملك من أمره شيء سوى أن يكون على صلة بها، أو بالمصطلح اللساني تدخل في صميم الحاضر الإبستيمي، الذي لو لم يكن موجودا لما تشكلت في الواقع أصلا. وهذه دعوى للتخلي عن الفلسفة الكانتية «ولا شك أن هيغل حين رفض الموقف الكانتي، فإنه قد استبعد بذلك كل (مثالية ذاتية) تتخذ نقطة انطلاقها من وعي خالص وهمي، قد تم فصله بتعسف عن الوجود الفعلي[28]»، ويرى هيغل أن الركون للعقل البشري وحده للوصول إلى معرفة هو تشويه للمعرفة في حد ذاتها «ما يعني –وفقا للرؤية الهيغلية– خطأ الركون إلى الخيال البشري في إنتاج المعرفة، ويحمل هذا الطرح الفلسفي طلائع القول بالبنية الثقافية بل حتى ب(السرديات الكبرى)، التي تعيش الأمم على إيقاعها، ونظر لها – بغض النظر عن التنوع الاصطلاحي– باحثون مرموقون، من أمثال إدوارد سابير، وأنطونيو غرامشي، وإرنست كاسيير، ولوسيان جولدمان، وجيان باجيه، وجورج لوكاتش[29]». فلا ينكر أحد فضل الرجل على الفكر البشري المعاصر والحديث فلقد فتح هيجل أبوابا جديدة لاشتغال العقل البشري، فكان أن تأسست على يديه صرامة المنهج العلمي[30]، الشديد الذي التزم به هيغل، وألزم كل باحث حاول تبني رأي هيغل في التعامل مع القضايا العلمية «فقاد هذا بالنتيجة إلى قيام مذهب عقلاني مبني على خبرة الذات المنغمسة في الطبيعة، وهو نقيض للعقلانية الكانتية المجردة، ويمكننا أن نرى –بوضوح– في الطرح الهيغلي (المعين الفلسفي) الذي استقت منه اللسانيات –فيما بعد– فكرة البنية، أو النسق، وكشفت به قضية التناقض بين الزمانية والآنية. بل يمكننا أن نرى حتى الثنائيات التي قام عليها علم اللغة البنيوي، كاللغة والكلام، والمحور التتابعي والمحور الاستدلالي. ولا يحتاج المرء تأملا طويلا ليرى ذلك، وإن كانت اللسانيات السويسرية غير منقطعة العلاقة بالفلسفة الكانتية، كما سيتبين لنا من سيرورة البحث[31]». على الرغم من الرأي الهيغلي مناقض للتفكير الكانتي، إلا أن الفكر السوسيري هو امتداد لبعض أفكار آخر فلاسفة عصر التنوير

بنيت فكرة النسق التي طبعت الفكر السوسيري على افتراض أنه: لا وجود لذات فردية وحيدة ذات كيان أنطلوجي وحيد، فالوجود والقيمة تتحدد بالدور الذي تعطيه الذات داخل الجماعة الطبيعية، والجماعة اللغوية عن سوسير، حيث أن كل ذات في تعطي حق وجودها لعلاقتها بالذوات الأخرى، فتتشكل الماهية داخل الحيز الذي ترسمه الجماعة، بحيث لا يتحدد أحدهما إلا بعلاقته بالعناصر الأخرى[32]، «لكن الذي يبعد دي سوسير عن رؤية هيغل المعرفية، مستوى التجريد اللساني، المتوقع عند البنية اللغوية البحتة السكونية (الآنية)، المنفصلة عن الجدل الثقافي للحاضنة البشرية، وهو ما لا ترتضيه الفلسفة الهيغلية إلا بنهاية التاريخ، أي في اللحظة الزمنية المستقبلية

الافتراضية، التي لا يكون فيها جدل تاريخي، على أن الفصل السوسيري فصل افتراضي تعليمي، وسنرى أن سوسير نفسه يقول بذلك[33]»

لقد طبع المنهج التجريبي أغلب البحوث واستلهم المفكرون والفلاسفة منه آرائهم حيث ساد في القرن التاسع عشر، وكان السبب الرئيسي في ازدهار المناخ الفكري وتطوره، وكانت هذه التيارات الفكرة ذات نزعة جدلية ديالكتيكية، وكانت التجربة هي المصدر الوحيد للمعرفة[34]، وكان هذا له الأثر في تطور وازدهار علم الألسنية في تلك الحقبة، أو لنكون أكثر دقة جميع العلوم الإنسانية التي اتخذت المنهج التجريبي منفذ المعرفة لديها[35]،«وكانت اللسانيات في مطلع أمرها لسانيات تاريخية، تعتمد مقولة الزمانية أو التعاقبية، التي هي المقولة السائدة في الدراسات اللسانية الغربية آنذاك، وكان سوسير في مطلع أمره عالما لسانيا تاريخيا، يعتمد على مقوله الزمانية بوصفها مشغله العلمي الأثير، بيد أن الأمر لم يبقى على حاله، فثمة تحول معرفي كبير كان قادما، ليس على مستوى البحث اللغوي فحسب، بل على مستوى الدراسات الإنسانية عامه. ولعله من باب (الجدل الهيغلي) أن يتحول دي سوسير من النقيض إلى نقيضه، فيستبدل مقولة (الآنية) التزامنية، بمقوله (الزمانية) التعاقبية، ويتخذ منها أي: (الآنية)، المقولة التي يسير على ضوئها في الكشف عن أسرار اللغات البشرية، [36]» إن هذه القفزة بين الآنية والزمانية لم يكن بمحض الصدفة فمن البديهي أن العلوم تتابع تاريخيا فتظهر عن ذلك التواكب فلسفة متكاملة منهجيا، وقد يكون هذا التكامل عبر الطريق التماثلي، أوقد يمر عن طريق التقابل.

يقول الدكتور عبد السلام المسدي: أم المهم بالنبة لنا في هذا كله هو النهج الاستكشاف الأصولي أي تأكيدا على ما ندعي بأن البحث اللغوي استطاع تمثيل الصورة الثالية للوضع الفكري المولد فيه، وهو الذي خضع لمنهج البحث عن النواميس والقوانين المتحكمة على هذه الصيرورة وفي الوقت نفسه لمنهج الوعي بأثر التاريخ في صيرورة الإنسان، ، ولا هوية للإنسان إلا بفضل البعد اللغوي الذي يميزه، ولا ظواهر للتاريخ إلا في خضم الجدل العقلي، الذي موضوعه، و مادته اللغة[2] حيث كان البعد اللغوي هو المسيطر و« أم الأساس اللازماني، الشامل، والذي تتكأ عليه مظاهر التجربة، ومؤكدة على وجود نسق أساسي، الذي ترتكز عليه جل المظاهر الخارجية للتاريخ [37] ». وهذا راجع إلى سيطرة النزعة التجريبية على الأعمال اللغوية و«أما سوى ذلك، فيبدو المنهج الهيغلي، المتمثل بالبحث عن القوانين المتحكمة في الظواهر الطبيعية واضحا بشده في البحث اللساني السوسيري، لأن البناء النظري للبنيوية ذو نزعة تجريبية استقرائية، بجدل صاعد، والباحث ينتقل فيه الخاص إلى العام، أو من الجزئية إلى الكلية، أو من المحسوس إلى المعقول، ويقوم الاستقراء اللساني السوسيري على وصف الوقائع والظواهر، وتصنيفها، وترتيبها، والكشف عن العلاقات المتبادلة بينها، وتجريد خصائصها العامة المشتركة، بالاعتماد على الملاحظة والتجربة، كل ذلك من دون تدخل من الباحث، (الذات العارفة)، الذي يدرس الظاهرة بشكلها الواقع في الطبيعة، أو بصفتها واقعه فيزيائية طبيعية ، ليصل من وراء ذلك كله إلى بناء النظري اللغوية، غير المرتبطة بشيء،

2

لتكون مصداقا لما كان يقوله دي سوسير، وهو»[38] علمنة الدراسات اللغوية، أي عزل اللغة عن سيرورة التاريخ و«أن الهدف الحقيقية الوحيد لعلم اللغة هو: أن اللغة تدرس في حد ذاتها، ومن أجل ذاتها[39]» ولقد بنيت اللسانيات على فكرة الآنية وهي كما يرى الدكتور عبد السلام المسدي واسطة العقد في كمال تفكيره المعرفي اللساني[40] ف«الآنية –والتي تعتبر عمود الفلسفة البنيوية– تتمثل قي مبدأ الزاوية الأفقية، فهي جملة لا تؤمن بالأشياء، ولكنها تؤمن بالعلاقات التي تربط بين الأشياء[41]» حيث لا يمكن عزل الظاهر عن المناخ المنتج لها وعن الظواهر المسببة في ظهورها حيث «ظهرت الفلسفة الزمانية على فكرة مفادها بأن حقيقة الظواهر كامنة في غيرها، لا في ذاتها، لكونها مستنبطة من الأسباب و العلل التي سبقت وجودها على وجود المعلول والمسبب[42]» ولهذا قد تحتاج مقوله الدكتور عبد المسدي، «أرسى القواعد الأصولية للبديل الذي سينقض مقولة الزمانية»[43]، إلى إعادة صياغة، أو تفسير، فهنا –في أعمال دو سوسير اللسانية– لا توجد مقولة علمية تنقض مقولة علمية أخرى وتهدمها، بل لدينا مقوله مستدعاه تزيح مقولة أخرى مستعملة، لتحل محلها، وتأخذ فرصتها في القيام بمطلع معرفي جديد ذي طبيعة نفعية، ذرائعية، كما أن سوسير نفسه يقول: «إن التمييز بين النظام وتاريخه، بين ما هو عليه، وما كان عليه في الماضي، سهلا، ولكن الحقيقة هي: إن الشيئين يرتبطان ارتباطا وثيقا، أحدهما بالأخر إلى درجة قلما نستطيع معها فصلهما[44]»، فهذه ال(قلما نستطيع) تكاد تكون متساوية ل(لن نستطيع)، لكن الضرورة المنهجية تقتضي افتراض إمكانية الفصل بين المحورين[45]، ولعل مقولة المحوران التتابعي والاستبدالي فيها دلالة بالغة على ذلك، فالتتابعي يمثل الآنية، والاستدلالي يمثل الزمانية و«يجر إلى نهجه سائر العلوم، بما سيولدهم من رؤيه جديدة للظواهر، هي الرؤية البنيوية، من حيث هي المركب الفلسفي الذي محركه (الآنية)[46]»، وبات دي سوسير «الأب الحقيقي للحركة البنيوية في العصور الحديثة[47]» وصاحب الفضل الكبير في ظهور المنهج البنيوي، بيد أن ظهور البنيوية اللسانية –بالمعنى المحدد لهذا المصطلح– كان في عام 1928، في المؤتمر الدولي لعلوم اللسان الذي انعقد في مدينه لاهاي بهولندا، بواسطه بحث تضمن الأصول الأولى البنيوية، قدمه ثلاثة من علماء اللغة الروس، وهم: ياكبسون، وكاراشافسكي، وتروبتسكوي[48]. ثم أصدر هؤلاء العلماء الثلاثة بعد ذلك، بيانا في الشأن نفسه، في المؤتمر الأول اللغويين السلافيين، الذين اعقد في براغ سنه 1929، وبه بدأ نشاط دائرة براغ اللغوية[49]، ويتكون قوام الأفق المعرفي (الإبستمولوجي)، الذي افتتحه المنهج البنيوي للبحث عن الظواهر الإنسانية والمجتمعية مما يأتي[50]

1. تقديم الكل على الأجزاء والعلاقات على العناصر.
2. تعليق الزمن، ومنح الأولوية المنطقية لعلاقات التآني على علاقات التتالي، وللبنية على التاريخ.
3. البحث عن قوانين البنية، أو المنظومة.

إن إرساء دعائم نظرية معرفية لسانية، لدراسة اللغة الإنسانية، ضرورة منهجية، لا فكاك عن البحث فيها، بغض النظر عن تنوع المقولات الصورية، ودرجات رفضها، أو القبول بها[51]، «في الوقت الذي كانت فيه المدرسة

الأمريكية مع البحوث اللغوية تمعن في استنكاه خفايا تشكل القدرة الكلامية عند الإنسان، وذلك علة أيدي التوليديين، كانت المدرسة الأوروبية ولا سيما في الأسرة الفرنسية بالعلم اللساني نحو آفاق توغل في التأمل النظري، وتؤسس لتفكير مجرد حتى تعانقت اللسانيات والفلسفة بعد أن التقتا على منصة إبستيمية المعرفة[52]»، فشكلت أعمال التوليديين قفزة نوعية في البحث اللغوي، وكانت ردة فعل عنيف على البنيوة «وعندما نشر كلود ميلنار سنة 1989 كتابه مقدمة في علم اللغة كان التنظير قد أدرك شوطا بعيدا في تأسيس حقل إبستيمي مداره اللسانيات وخاصيته المميزة أنه يصادر على مطابقة نقد العلم مع فلسفة العلم بحيث تخرج الثمرة الخالصة متشكلة في بحث الأغوار المعرفية للظاهرة اللغوية[53]»، فاللسانيات لم تكن لها آثار على العلوم اللغوية فقط بل على سائر العلوم الإنسانية و«لقد انطلق ملينار من مسلة مفادها بأن علم اللسانيات يرغب في أن يكون علما، و هذا الهدف هو من أعطاها سبب وجودها فلولاها لكان حريا بها أن تختلط بالإنجازات القيمة التي وفرتها لنا التركة التراثية النحوية على الصعيد البشري عامة[54]» وهذا الوعي المعرفي الحاد قد جاء ثمرة طبيعية لمخاض فكري رصين مر بمحطات بارزة يمكن لنا أن نقف عند ثلاث منها

أولا: تمثلت في إصدار موسوعة العلمية لا بلياد لمجلد خاص بعنوان (المنطق والمعرفة العلمية) الذي أشرف عليه جان بياجيه وذلك سنة 1967، وقد أسهم فيه لايو أبوستال بفصل حول إبستيمية اللسانيات تحسس فيه الأصول المبدئية التي حددت تاريخ الفكر اللساني الحديث. ورغم دقة الموضوع وترامي أطرافه فقد حاول الباحث إقامة تناظر معرفي بين مراحل التفكير اللساني ومقومات النظرية التوليدية مما يجعل فلسفة العلم دائرة على تناسخ داخلي ضمن النظرية اللغوية العامة، وهذا ما دفع بنقد المعرفة إلى انخراط في ميثاق نقد منهج المعرفة.

المحطة الثانية: وقد مثلت هذه المرحلة في المؤتمر الدولي المنظم من طرف (الأكاديمية الدولية لفلسفة العلوم) وقد تم هذا بالاشتراك مع (المركز الدولي للإبستيمية التكوينية)، والذي دارت وقائعه في مدينة جينيف أواخر شهر سبتمبر عام 1970 لمعالجة الموضوع الأساس للمؤتمر ألا وهو التفسير في اللسانيات، وكانت الحيرة الفكرية الغالبة على المؤتمر هي إثبات الخلفية المعرفية عند أي نظرية تحاول وصف اللغة، ولقد توجه البحث حول إماطة الفواصل بين المنهج الاختباري الوضعي والمنهج النحوي العياري وهذا راجع إلى التسوية التي يعمل في ظلها نقد العلم.

المحطة الثالثة: جاءت هذه المحطة نتيجة اللقاء الذي نظم من طرف مركز روايامون، وقد أنشئ بغية تأسيس العلم الذي يهتم بالإنسان، وقد جمع فيه وصاحب اللسانيات التوليدية التحويلية نوام تشومسكي وواضع الإبستيمية التكوينية جان بياجيه وضم هذا اللقاء إليه النخبة من علماء العالم الكبار في مختلف التخصصات وكان موضوع اللقاء : نظريات التكوين _ نظريات اللغة، وذلك خلال شهر أكتوبر 1975، وقد صدرت وقائع هذا الحوار الفريد سنة 1979 في كتاب كبير تضمن كل المناقشين وبأدق التفاصيل.

فكانت الصبغة الفلسفية طاغية على الدراسات اللسانية وهذا ما أشار إليه الدكتور عبد السلام المسدي في حديثه عن تلاقي الفكر الفلسفي بالفكر اللغوي حيق يقول: « وعند هذا الموطئ نقف على منعرج حاسم في علاقة

الفكر اللغوي بالفكر الفلسفي إذا ما جلوناه أدركنا ما نذهب إليه من عمق معرفي، وجاز لنا أن نحدد سمته باللحظة الإبستيمية. فلا يتعمق الناظر خيوط الربط بين أنسجة الحقول الدراسية منذ منتصف القرن العشرين حتى يتبين له كيف راجع اللسانيون وجهة نظرهم حيال الفلسفة وكيف راجع الفلاسفة وجهات نظرهم حيال العلوم المتصلة باللغة » [55]، «فكان أن تعانقت اللسانيات والفلسفة على عتبة إبستيمية واحدة حيث «نحن إذن أمام وضع معرفي جديد: اللسانيات فيه تواجه قضايا كانت تسند إسنادا كليا إلى حقل الفلسفة، والفلاسفة فيه ينتبهون انتباها فجئيا للثورة المعرفية التي تنجزها العلوم اللسانية فإذا بهم ينتقلون من منصة إلى أخرى: كانوا يهتمون باللغة فتحولوا إلى الاهتمام بمنهج اللغويين في دراسة اللغة[56]»، هذا كان نتاج تلاحق الفلسفة بالدراسات اللغوية على أشواط طويلة، وعلى أرضية خصبة مهدت لظهور النظريات والمناهج الخاصة بهم، ولم يكن يتأتى هذا لولا الإبستمولوجيا اللسانية.

4. خاتمة:

هذا كان موجزا حول الأسس المعرفية والفلسفية والعلمية التي بنيت عليها اللسانيات، وكيف كان التأسيس الفعلي للبنية، وعلاقة سوسير بالتراث الفلسفي الكانتي والهيغلي خصوصا، فلم تكن اللسانيات وليدة لحظة فجائية عابرة في سيرورة التاريخ، بل كانت نتاج تفكير فلسفي، وأسس منهجية صارمة، فحذت باللسانيات إلى أن تكون حاملة مشعل الريادة في العلوم الإنسانة، بفضل الأسس التي وضعتها وفرضتها على كل متبني للمنج الذي ابتكرته.

وقد أبان عبد المسدي عن ذلك من خلال مؤلفاته لقد حاول تقصي المرجعيات التي استلهمت اللسانيات قواعدها أسسها، وكان بحث المسدي في هذا الباب لتبيان الفوارق البينة بين اللسانيات، والتراث النحوي، لأن المثير من الباحثين وقعوا في هفوة الإسقاط والتأصيل.

فجاءت جهود المسدي لتبيان الفرق الجوهري بين النحو العربي، واللسانيات السوسيرية.

5. الهوامش

[1] ينظر: عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات،ص10.

[2] كلود ليفي ستروس، الإناسة البنيوية، ص16.

[3] المسدي، مباحث تأسيسة في اللسانيات، 2010، صفحة 11.

[4] الزواوي بغوره، الفلسفة واللغة نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة، 2005، صفحة 149.

[5] جورش هانز غادامير، التفكير مه هايديغر ضد هايديغر، 2006، صفحة 34.

[6] ينظر: محمد بدوي، 1977، صفحة 3، و الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، 2018، صفحة 23.

[7] ينطر بغوره، إشكالية المنهج في العلوم الإنسانية، 2012، صفحة 15. و مصطفى حسيبة، 2009، صفحة 207_208.

[8] السعيد بنكراد، *السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس*، 2005، صفحة 158.

[9] ينظر: الزواوي بغوره، إشكالية المنهج في العلوم الإنسانية، 2012، صفحة 16_17.

[10] ينظر: المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 113.

[11] ينظر: جواد كاظم التميمي، اللسانيات الأنثروبولوجية 2019، صفحة 123.

[12] ينظر: محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، 2018، صفحة 20.و أندريه لالاند، 2001، صفحة 911.و حسيبة، 2009، صفحة 105.

[13] ينظر: الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، 2018، صفحة 21.و جون باجيني، 2010، صفحة 82_85.

[14] ينظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، 2001، صفحة 125.

[15] رودريك ميشال تشيزلهولم، 1995، صفحة 6.

[16] التميمي، 2019، صفحة 124.

[17] تشيزلهولم، 1995، صفحة 6.

[18] الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، 2018، صفحة 12.

[19] ينظر: التميمي، 2019، الصفحات 14-21.

[20] مصطفى غلفان، 2010، صفحة 250.

[21] المسدي، مباحث تأسيسة في اللسانيات، 2010، صفحة 10.

[22] ينظر: المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 110.

[23] ينظر: المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 110، و إبراهيم، هيغل أو المثالية المطلقة، د.ت، الصفحات 184-185.

[24] ينظر: زكريا إبراهيم، هيغل أو المثالية المطلقة، د.ت، صفحة 185.

[25] التميمي، 2019.

[26] ينظر: المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 110.

[27] التميمي، 2019، صفحة 134.

[28] زكرياء إبراهيم، هيغل أو المثالية المطلقة، د.ت، صفحة 185.

[29] التميمي، 2019، صفحة 138.

[30] المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 110، و إبراهيم، هيغل أو المثالية المطلقة، د.ت، صفحة 185.

[31] التميمي، 2019، صفحة 131.

[32] المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 128.

[33] التميمي، 2019، صفحة 133.

[34] المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، الصفحات 111-112.

[35] ينظر: المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 113.

[36] التميمي، 2019، صفحة 132.

[37] إبراهيم، هيغل أو المثالية المطلقة، د.ت، الصفحات 284-285.

[38] التميمي، 2019، صفحة 136.

[39] فيردينان دي سوسور، 1988، محاضرات في علم اللغة، صفحة 253.

[40] ينظر: المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 120.

[41] المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 129.

[42] المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 129.

[43] المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 121.

[44] فيردينان دو سوسور، 1988، صفحة 28.

[45] ينظر: التميمي، 2019، صفحة 135.

[46] المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 121.

[47] إبراهيم، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، 1990، صفحة 43.

[48] ينظر: إبراهيم، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، 1990، الصفحات 34-44.

[49] ينظر: مراد وهبة، 2007، صفحة 146.

[50] ينظر: محمد سبيلا، 2009، صفحة 139.

[51] ينظر: المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1976، صفحة 128.

[52] المسدي، مباحث تأسيسة في اللسانيات، 2010، صفحة 13.

[53] المسدي، مباحث تأسيسة في اللسانيات، 2010، صفحة 14.

[54] المسدي، مباحث تأسيسة في اللسانيات، 2010، صفحة 14.

[56] المسدي، مباحث تأسيسة في اللسانيات، 2010، صفحة 16.

5. قائمة المراجع:

1. إديث كريزويل. (1993). *عصر البنوية*. (جابرعصفور، المترجمون) القاهرة: دار سعاد الصباح.
2. الزواوي بغوره. (2002). *الفلسفة واللغة، نقد المنعطف اللغوي في الفلسة المعاصرة*. بيروت: دار الطليعة.
3. الزواوي بغوره. (2012). إشكالية المنهج في العلوم الإنسانية. *مجلة البصائر*(2).
4. أندريه لالاند. (2001). موسوعة لالاند الفلسفية. تأليف أحمد عويدات (المحرر). بيروت وباريس: منشورات عويدات.
5. بغوره الزواوي، و بوغرة الزاوي. (2002). *الفلسفة واللغة نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة*. بيروت: دار الطليعة.
6. جواد كاظم التميمي. (2019). *اللسانيات الأنثروبولوجية منظور معرفي لدراسة بنية الثقافة العراقية*. الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
7. جوليان باجيني. (2010). الفلسفة موضوعات مفتاحية. سوريا: دار التكوين للتأليف والترجمة.
8. رودرك م. تشيزهولم. (1995). *نظرية المعرفة*. (نجيب الحصادي، المترجمون) مصر وكندا: الدار الدولية للنشر والتوزيع.
9. زكرياء إبراهيم. (1990). *مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية*. مصر: مكتبة مصر.
10. زكرياء إبراهيم. (د.ت). *هيغل أو المثالية المطلقة*. مصر: مكتبة مصر.
11. سعيد بنكراد. (2005). *السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس*. بيروت والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي و مؤسسة تحديث الفكر العربي.
12. عبد الرحمان بدوي. (1977). *مناهج البحث العلمي*. الكويت: وكالة المطبوعات.
13. عبد السلام المسدي. (1976). اللسانيات وأسسها المعرفية. تونس والجزائر: الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب.
14. عبد السلام المسدي. (2010). مباحث تأسيسة في اللسانيات. الأردن: دار الكتاب الجديد المتحدة.
15. فرديناند دي سوسور. (1988). *علم اللغة العام*. (يوئيل يوسف عزيز، المترجمون) جامعة الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر.
16. فؤاد زكرياء. (1991). *آفاق الفلسفة*. مصر: مكتبة مصر.
17. محمد سبيلا. (2009). *مدارات الحداثة*. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

18.محمد عابد الجابري. (2018). *مدخل إلى فلسفة العلوم العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي*. لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

19.محمد عابد الجابري. (بلا تاريخ). بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

20.مراد وهبة. (2007). *المعجم الفلسفي*. مدية نصر، القاهرة: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع.

21.مصطفة حسيبة. (2009). *المعجم الفلسفي*. الاردن: دار أسامة للنشر والتوزيع.

22.مصطفى غلفان. (2010). *في اللسانيات العانة: تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها*. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

23.هانس غيورغ غادامير. (2006). *فلسفة التأويل الأصول، المبادئ، الأهداف*. (محمد شوقي الزين، المترجمون) الجزائ وبيروت: منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم.